الموضوعية عند كثير من الناس قد تتأبى على مانسميه باسم روح العصر ، أو حاجة الإنسان المعاصر إلى ضروب خاصة من التأملات . ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك .

حرص الدكتور طه على أن يعطى اتجاها عاما لمطولة لبيد وماجاء فى صدرها . وقد أشار فى مفتتح هذا الكلام إلى حياة الإنسان المعاصر السريعة التى تشغله ، وتحول بينه وبين الأناة والتفكير أو تحول بيننا وبين عودتنا إلى أنفسنا ، فالعودة إلى النفس تصبح شاقة كلما ارتقت الحضارة من بعض النواحى على أقل تقدير . والدكتور طه يقدر أن العودة إلى النفس جانب أساسى من ثقافة الإنسان الذى يشغله التحقق العملى ، والاندفاع إلى الأمام ، وتغيير الواقع ، كل هذا يحوج الإنسان ـ فيما يقول طه حسين ـ إلى العودة إلى النفس لتتبين فيها عواطف الشوق والحنين ، فالحياة محتاجة إلى هذا الحنين من ناحية ، والاندفاع والتغيير من ناحية ثانية .

وقد أدار طه حديثه فى المطولة كلها على هذين الجانبين ، كيف يجتمعان وكيف يتنافسان ، عودة الى الذات من ناحية ، وخروج عن الذات الى مانسميه باسم المجتمع أو الطبيعة من ناحية ثانية ، وهذه ـ بداهة ـ هى مشغلة الدكتور طه فيما سماه باسم القراءة المتميزة من بعض الوجوه من حاجات الدراسة والبحث ، استنبط طه من صدر هذه المطولة عاطفتين متآلفتين على الرغم من تباينهما ، وجد الشاعر يحزن ويفرح ، ولكن لايفسده الحزن ولايبطره الفرح ، وجد طه لبيدا معتدلا فى حزنه وفرحه ، ووجد فى ذلك مظاهر القدرة على ضبط النفس . ومضى طه فعاد الى طريقته فى الإيماء الذى يحتاج إلى تأمل واستيضاح ، فقال عن لبيد وهو يسلك إلى تصوير عواطفه هذه نفس الطريق التى يسلكها الشعراء المحدثون ، طريق التصوير القوى المؤثر الذى يثير فى نفسك الإعجاب لأنه يؤثر فى عقلك وحسك وشعورك . وأنا أشفق عليك أو أشفق منك ، فلا أروى لك الأبيات الأولى من هذه القصيدة بلفظها ، وقد درج كثير من القراء على أن يمروا بهذه العبارات سراعا بغير أناة فيما عناه طه بالتصوير وطريقة المحدثين .

ومن البداهات التى ينساها القراء أن طريق المحدثين فى التصوير مختلف عن طريق النقد والبلاغة العربية ، فقد كانت البلاغة العربية كغيرها من البلاغات التقليدية ترى الشاعر يثبت الأشياء أولا ثم يصورها ثانيا ، فالشاعر على هذا الوجه يمر بمرحلتين